

أبو عبد الرحمن الأزدي «الخليل بن أحمد» أستاذ ومؤسس مدرسة البصرة في اللغة. (دراسة لغوية من خلال كتابه العين)

أستاذ النحو والصرف المشارك - كلية الآداب
جامعة الفاشر

د. بخيت عثمان جبارة ثقل

مستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على جوانب من الفكر اللغوي ، عند أبي عبد الرحمن الأزدي الخليل بن أحمد بن عمرو بن الفراهيدي البصري ، والكشف عن ريادة علماء البصرة وسبقهم في التحليل اللغوي الخاص بمستوى الصيغ الصرفية .
تكمّن أهمية الدراسة في أنها تكشف عن سبق علماء البصرة في إدراك المفاهيم اللغوية في القرن الثاني الهجري، وفي أنّ اللغة والنحو في أول نشأته بصريّ، تعاون على إيمائه دارسون بصريون ، حتى انتهى إلي الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي. اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي في إنجاز هذه الدراسة ، حيث قام بتتبع واستقراء للمدرسة البصرية في الدرس اللغوي . وقد توصل الباحث لنتائج مهمة منها : الخليل هو المؤسس الحقيقي لعلوم العربية في مدينة البصرة وغيرها، من نحو وعروض ، ومعجم، وما يتصل بهذه العلوم بعدئذ ، لم يصلنا من مؤلفاته القديمة غير كتبه المعروفة مثل كتاب: معجم العين ، وكتاب : الجمل في النحو .
الكلمات المفتاحية : نحو ، صرف ، رؤية ، منهج

Abstract:

The aim of this study is to identify aspects of linguistic thought, in Abi Abdirahman Al-Azdi Al-Khalil bin Ahmed bin Amr bin Al-Farahidi Al-Farahidi, and to reveal the leadership of Basra scholars and their predecessors in the linguistic analysis of the level of stylistic formulas. The importance of the study lies in the fact that it reveals the precedent of Basra scholars in the realization of linguistic concepts in the second century, and in the fact that language and grammar, in its first visual origin, were developed by visual scholars, until Hebron bin Ahmed Al-Farahide Al-Azdi came to an end. The researcher followed the analytical

descriptive curriculum of this study, tracking and extrapolating the visual school in the language course. Hebron is the true founder of Arabic science in Basra and others. Eye lexicon, book, sentences in grammar. Key Words: Towards, distraction, vision, curriculum

مقدمة :

يُعد الخليل بن أحمد المؤسس لمدرسة البصرة في الدرس اللغوي ، كما له السبق ، مع علماء البصرة في إدراك المفاهيم اللغوية في القرن الثاني الهجري، وفي تطور النحو وإثرائه . ولتبيين هذه الرؤية وتلك الاتجاهات ، اشتملت الدراسة خمسة عناوين هي: أبو عبد الرحمن الأزدي حياته وعلمه، ناقشت فيه مراحل حياته وتعليمه ، ثم متوجه العلمي . العنوان الثاني : الدرس اللغوي عند أبي عبد الرحمن الأزدي البصري، الذي بينت فيه منهجيته في درس ومدارس اللغة ، وآرائه ومواقفه . ثم العنوان الثالث : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد اللغوي وكتابه العين، درست فيه مؤلفه : كتاب (العين) أيضاً لأهم المناهج فيه، والاتجاهات. أما العنوان الرابع هو : نسبة كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وهذا المحور خُصص للكشف عن هوية مؤلف الكتاب ، أخيراً العنوان الخامس : الأصول التي بُنيت عليها مقدمة كتاب العين ، وفيه توضيح للأصول اللغوية وغيرها ، التي اعتمدت في صياغة مقدمة كتاب العين ... هذا وأرجو من الله أن أكون قد وفقت في طرح هذه القضية المهمة .

أبو عبد الرحمن الأزدي حياته وعلمه:

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري، كان عربياً خالصاً ينتمي إلى قبيلة الأزد اليمانية وهي قبيلة كبيرة، لها ماضيها العريق، ومكانتها السياسية والاجتماعية في عمان، وقد يقال أن والده أول من سمي بأحمد بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عاش خمسة وسبعين عاماً، حيث ولد سنة (100هـ) وتوفي سنة 172هـ وعلى ما يبدو أنه مكث في البصرة طوال حياته ولم يرحلها إلا للحج⁽¹⁾ .

كان الخليل بن أحمد من الذين جاهدوا في سبيل الله عن طريق انصرافه للعلم، فلما بلغ أشده انتقل في طلب العلم، فقد كانت رغبته فيه قوية جداً، فذهب إلى البصرة، حيث حضر مجالس الأدب واللغة، وتلمذ على أشهر علماء عصره وفي مقدمتهم (أبو عمر بن العلاء البصري) و(عيسى بن عمر الثقفي) وكان يوصف بصفات طيبة ومكرمات حميدة.

وقال سفيان الثوري: (من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد)⁽²⁾ . وكان الخليل بالإضافة إلى ذلك، ذكياً فطناً شاعراً وقد اجتمع بمكة أدباء الأقطار الإسلامية فتذكروا وتفاخروا على أن الخليل (أدب العرب ومفتاح العلوم ومصرفها) ولقد شهد بفضل كثير من الأدباء واللغويين وفي مقدمتهم (ابن المقفع الذي وصفه بقوله: «لقد لقيت رجلاً عقله أكبر من علمه»)⁽³⁾ .

ولم يكن الخليل بن أحمد على حظ كبير من الغنى والسعة، فرضي وقنع بعيشته المتواضعة

الزهيده ولم يشأ أن يرهل إلى الأمراء ليؤذب أولادهم فعاش زاهداً متقشفاً يزدرى متاع الحياة الدنيا. قال النضر بن شميل: (ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا أرى الخليل مثل نفسه، وكان أشعث الرأس، شاحب اللون قشف المعيشة، ممزق الثياب، متقلع القدمين، مغموراً في الناس لا يعرف) (4). قالوا في زهد الخليل: إنه دخل على الخليل بن أحمد رجل سليمان بن حبيب المهلبى أمير الأهواز يحملون إليه الهدايا والأموال ويقدمونها إليه، وكان بين تلاميذه يلقي عليه درسه، فلم يلتفت إليهم حتى فرغ مما هو فيه فتقدم منه قائدهم فقال: (هذه مائة ألف درهم وهدايا أرسلها مولاي الأمير يرجوك أن تصحبنا إليه) فنهض الخليل إلى خزانة في البيت وأخرج منها شيئاً صغيراً يحمله في يده، وعاد إلى مجلسه وقال له: أرايت هذه الكسرة من الخبز؟ إنها زادي الوحيد ولكنها كافية تسد رمقي. وما دام عندي منها فلست بحاجة إلى سليمان، أما هذه الدراهم الكثير فعند الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها فليردها عليهم) (5).

وفي رواية أخرى يقال: إن سليمان بن علي والي المنصور على الأهواز يستدعيه إلى صحبته، وبعث إليه كساء وفاكهة فقبل الفاكهة وصرف ما سوى ذلك وكتب إلى سليمان:

أبلغ سليمان عنه في سعة * وفي غنى غير أني لست ذا مال (6)
 سخي بنفسي لا أرى أحداً * يموت هزولاً ولا يبقى على حال
 فالرزق عن قدرٍ لا العجز ينقصه * ولا يزيدك فيه حول محتال
 والفقر في النفس لا في المال تعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
 والمال يفشي أناساً لا أصول لهم * كما تفشي أصول الدندر (7) البالي (8)

وهو القائل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد * ذخراً يكون كصالح الأعمال

وهذا يدل على أنه نشأ عفيفاً زاهداً، ورعاً، تقياً محباً للعلم من أجل العلم وليس من أجل كسب المال. راضياً بما قسم له قانعاً بحياته التي كلها تواضع وفقر إلى الله عز وجل ولا ميل عنده للمناصب التي تبهر الكثير من الناس والكثير من علماء الدنيا فبهذه القناعات مجتمعة، كان جديراً بأن يكون معلماً جليلاً تتلمذ على يديه أفضل العلماء إلى الآن. ولم يكن الخليل بن أحمد يتوود إلى أحد من الناس أو يتقرب إلى ذي جاه أو سلطان بل كثيراً ما نراه يرفض عروضهم المغربية. كما حصل له مع والي الأهواز سليمان ابن حبيب حفاظاً على كرامته وصوناً من أن يبتذل مما يدل على عزمته الفريدة وبقي ملازماً بيته، بعيداً عن صخب المجتمعات لا يجاوز همه باب خصه كما يقول هو عن نفسه (9).

ف نجد أنه قد عاش فقيراً يقيم في خصة من خصاص البصرة التي يسكنها الفقراء يقتات من بستان متواضع، تركه له أبوه في الخريبة) (10).

نجد أن معظم الذين كتبوا وعاصروا الخليل قد اتفقوا على ورع الخليل وزهده في الدنيا وقناعته فذكروا روايات تختلف في ألفاظها وتتفق في مضمونها ومعناها⁽¹¹⁾.

الدرس اللغوي عند أبي عبد الرحمن الأزدي الخليل بن أحمد البصري:

حققت البصرة أعمالاً لغويةً مهمةً، وكانت في هذا مدينة للمربد، فقد كان المربد بمثابة للفصحاء من الأعراب، ومقصداً للدارسين البصريين، يسمعون من الأعراب اللغات و الغريب والنادر، ويدون ذلك في ألواح يحملونها معهم، ويعودون وفي عباهم مادة ضخمة للدارسين وطلاب العلم. واتنبه الدارسون، باختلافهم إلى المربد ومشافهة الأعراب الوافدين للمنبع الثر، الذي يمكن أن يستفدوه، فيرفدهم بأضعاف ما يرفدهم به المربد، وهو البوادي النائية، ولاسيما بوادي نجد والحجاز وتهامة، فكانوا يشدون الرحال إليها، ويقضون فيها أعواماً، يسمعون ويشافهون ويدونون. وكان الخليل بن أحمد كثير الاختلاف إلى تلك البوادي، فقد كان يحج سنة ويغزو سنة، ولا شك أنه كان قد أفاد من سنوات الحج كثيراً، ووقف بقوة ملاحظته ونفاذ ذهنه على ما لم يتيسر لغيره.

وظهر في بيئة البصرة لغويون، كانوا أعلام الدرس اللغوي، ومرجع الدارسين، وفي مقدمتهم: أبو عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، والنضر بن شميل، وقد صنف هؤلاء رسائل وكتباً، صنفوا فيها ما تجمع لديهم من مفردات وما جمعه من لغات ودونوها ولم يتجاوز علمهم اللغوي حدود التدوين، وضبط المفردات كما جاءت على ألسنة الأعراب، ثم تصنيفها بحسب المواضيع، ككتاب النخل، وكتاب النبات، وكتاب المطر، وغيرها، أو بحسب الحروف، كأن يتخذ أحد الحروف أساساً للتصنيف، وينتظم الكتاب المفردات التي تشتبك في هذا الحرف، ككتاب الجيم، وكتاب الهمز وغيرها، أو بحسب المعاني، أو غير ذلك، وكان الهدف من تدوينها هو حفظ اللغة من الضياع، وصيانتها من التصحيف والتحريف والخطأ.

أما الخليل فكان ينظر إلى هذه المفردات على أنها تمثل مرحلة متأخرة من مراحل البناء اللغوي، فإذا لم يبدأ بالدرس اللغوي من الأساس فلا جدوى منه، لأن الدرس يظل عاجزاً عن الخطوات التي سبقت هذه المرحلة والعوامل اللغوية التي شاركت في إتمام عملية البناء، وإذا كانت اللغة تتألف من مجموع هذه المفردات، فإن المفردات إنما تتألف من أجزاء، وهذه الأجزاء هي الحروف، فلا بد إذاً لمن يريد أن يدرس اللغة ويفهم طبيعتها، أن يبدأ بدراسة الحروف؛ لأن المفردات كلها إنما تتألف من حروف وهذه الحروف هي حروف الهجاء المعروفة.

يدل على مثل هذه الفكرة في ذهن الخليل ما حكاه الليث بن المظفر عنه قال: «كنت أسير إلى الخليل، فقال لي يوماً لو أن إنساناً قصد وألف حروف ألف وباء وطاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب، فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منها البتة، قال: فقلت له: وكيف يكون ذلك؟ قال: يؤلفه على الثلاثي والرباعي والخماسي... الخ»⁽¹²⁾.

فقلوه: (لو أن إنساناً قصد وألف حروف ألف أو باء أو تاء أو ثاء الخ...) يدل دلالة واضحة على مثل الخليل فكرة تأليف الأبنية، وأعني أبنية الكلمات، فهي إذاً تتألف من الحروف، والحروف هي مادة اللغة، والحروف في العربية تسعة وعشرون حرفاً، فلا بد للدارس إذاً أن يعرف

طبيعة هذه الحروف، وخصائصها، وما يقوم عليها بناء الكلمة، وما لا دخل له في البناء، ولا بد أن يكون الخليل قد أطال النظر في ذلك، وتدبر أمر هذه الحروف، فلم يكتفِ ترتيب الحروف من ذلك، عليه قائم «قلب الخليل» أ ب ت ث» فوضعها على قدر مخرجها من الحلق).

والسبب الذي حمّله على تغيير ترتيبها، وعلى وضعها على قدر مخرجها من الحلق، هو: أن الترتيب الموروث لم يثبت على أساس علمي. فهو حين أراد أن يضعها على قدر مخرجها إنما كان يرمي إلى إعادة تنظيمها ولكن على أساس علمي واضح.

وهكذا كان قد تأني للخليل، بما أتيح لعقله من أسباب التنظيم، أفكار عن طبيعة اللغة، ونشوتها وعن طبيعة الأصوات (الحروف) التي تتألف مفرداتها منها، وقد استخدم كل ما كان لعقله المنظم من إمكانيات لدراسة اللغة وفهم طبيعتها.

الخليل إذاً لم يتناول اللغة بالدرس من قمة الهرم، كما فعل من سبقه، وكما فعل من عاصره، ولكنه تناولها من القاعدة، فبدأ الدرس اللغوي بما يجب أن يبدأ به، بدأ بدراسة الأصوات (الحروف) التي تتألف منها مفردات اللغة، ليعرف مواقع تلك الأصوات من جهاز النطق، ويقف على خصائصها، وما يترتب على تألفها وتجاوزها، واستطاع بذلك أن يفسر ظواهر لغوية لم تكن لتفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاوزها وتمازجها.

أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد اللغوي وكتابه العين:

لم يكن الخليل نحويّاً عظيماً من أوائل من ركز أسس النحو البصري خاصة والنحو العربي عامة حسب، ولم يكن عروضيّاً كان له فضل الاختراع والإبداع حسب وإما كان إلى جانب هذا وذاك لغويّاً بارعاً وعالمّاً بالأصوات، والعجب من أمر الخليل أنه لم يكن مؤلفاً لعلوم عصره ككثير من العلماء وإما كانت معرفته بتلك العلوم وسيلة الإبداع فيها، وفائدة إلى وضع قوانين مطردة لها تسير عليها وذلك هو سر عبقريته، ولما فسد اللسان العربي من جراء الاختلاط بالأعاجم والابتعاد عن مواطن الأعراب ولم يعد قادراً على إعراب وضع النحو ليصان هذا اللسان عن الخطأ، بيد أن الاختلاط بالأعاجم ولا زال قائماً إلى حدة ترق فيه الفساد للألفاظ العربية نفسها فخشي الغياري على اللغة لغة القرآن من استمرار هذا الفساد وتفاقمه فرأوا أن يضعوا له حداً فشمروا عن سواعدهم وبدأوا العمل بجمع اللغة⁽¹³⁾.

كان الخليل على رأس هؤلاء وكتابه العين شاهد على ذلك فهو المعجم اللغوي الأول في اللغة العربية، وقد وصف ابن خلدون في المقدمة عمل الخليل هذا في كلامه عن اللغة فقال: «وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو والإعراب واستنباط القوانين لحفظها ثم استمر ذلك الفساد بلامسة العجم ومخالطتهم حتى تعدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من ألفاظ كلام العرب في غير موضوعاتها عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحها لكن المخالفة لصريح اللغة العربية فجنح إلى حفظ المواضع اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي وقد اهتمدى الخليل

إلى طريقة استطاع بها أن يجمع كل التراكيب العربية ، فلا يخرج فيها شيء ؛ ذلك أنه لاحظ أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين ، وهو دون نهاية حرف المعجم بواحد ؛ لأن الحرف الواحد منها يؤخذ من كل واحد من السبع والعشرين فتكون سبع وعشرون كلمة ثنائية ، ثم يؤخذ الثاني مع الست والعشرين . كذلك فيكون واحداً كلها أعداد على التوالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين؛ فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب، ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي ؛ لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب ، فيكون الخارج جملة الثنائيات في الجمع من واحد إلى ستة وعشرين ؛ لأن كل ثنائية يزيد عليها حرف فتكون ثلاثية، لتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية ، وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية ، فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على التوالي العدد، ويضرب فيه جملة الثنائيات ، ثم يضرب في ستة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم، وكذلك الأمر في الرباعي الخماسي⁽¹⁴⁾ فانحصرت له بهذا الوجه التراكيب المعروفة ، واعتمد في تركيب الحروف على المخارج ، فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعدها ، من حروف الحنك ، ثم الأضراس ، ثم الشفة ، وجعل العلة آخرها ، وهي الحروف الهوائية ، وعلى ذلك فهو لم يرتبها على أ ب ت ج ح خ.. بل رتبها على «ع ح خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ث ل ه ف ب م و أي» ثم بين المهمل من المستعمل ، ونلاحظ أنه لم يرتبها تبعاً للترتيب المعروف تبعاً لطبيعتها في النطق ومخارجها.

وقد وصف الزبيدي عمله هذا في مقدمة كتاب مختصر العين فقال: «هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري/ رحمه الله من حروف ا ب ت ث مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب وألفاظهم ، ولا يخرج منها عنه شيء ، وقد أراد أن تعرف أمثالها ومخاطبتها وألا يشذ عليه شيء من ذلك ، فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدئ بألف من أول ا ب ت ث وهو الألف ؛ لأن الألف حرف معتل فلما فاتته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني وهو الباء إلا بعد حجة واستقصاء النظر، وتدبر ناظراً إلى الحروف كلها ، ومذاقها فصير أولها بالابتداء ، أدخل حرف منها بالحلق، وإما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو ا ب ، ا ت ، ا ث ، ا ع ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب ثم قرب من الأرفع فالأرفع⁽¹⁵⁾ .

وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه ويليه للرباعي ثم الخماسي وقد حدد الخليل الدخيل من الحروف من الأصيل بصورة دقيقة وله لأجل تحديد ذلك ثلاثة موازين توصل إليها بدراسة الحروف وخصائصها. أن يجتمع في الكلمة حرفان لم يألف العرب اجتماعها. أن تكون الكلمة رباعية أو خماسية وليس فيها حرف أو أكثر من حرف الذلاقة أحرف الذلاقة هي الميم، اللام، الباء، النون والأرجح أن تكون الكلمة على مثال خاص لم يبن العرب كلامهم على مثله⁽¹⁶⁾

نسبة كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد:

اختلف الباحثون اللغويون في نسبة كتاب العين الخليل ،وسوف أعرض هذه الآراء، لأن

التعرض لهذه المسألة لا بد لنا منه. لقد جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان «أكثر العلماء العارفين باللغة يقولون أن كتاب العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ليس من تصنيفه وإنما كان قد شرع فيه ورتب أوائله، وسماه بالعين ثم توفي فأكمّله تلميذه النضر بن شميل ومن في طبّقته كمؤرخ السدوسي، ونصر بن علي الجهضمي وغيرهما فما جاء علمهم مناسباً لما وضعه الخليل في الأول⁽¹⁷⁾ . أما ابن النديم صاحب كتاب الفهرست يقول «تقول أن الخليل عمل كتاب العين في خراسان وحج وخلفه هناك ثم أكّمله الليث بن مظفر من ولد نضر بن سيار بعد أن توفي الخليل⁽¹⁸⁾ . ويقول جلال الدين السيوطي في كتاب المزهر في علوم اللغة «ومن هنا نرى الباحثين يختلفون في نسبة الكتاب فمنهم من يرى أن الكتاب ليس للخليل لما فيه من التخليط والخلل والفساد لا يجوز أن يحمل على رجل مثل الخليل ومنهم من يرى أن الكتاب للخليل وقد أمر تلامذته بالتنفيذ، ومنهم من يرى أن الكتاب كله للخليل، ومن المهم في ذلك رواية السيوطي ورأيه حيث يقول: «ونحن نربأ بالخليل عن نسبة الخل إليه أو التعرض للمقاومة له، بل نقول أن الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه. وأكثر الظن فيه أن الخليل سبب أصله، وتقف كلام العرب ثم هلك قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه والخطأ الموجود منه»⁽¹⁹⁾ .

أما كتب المحدثين من العلماء والباحثين فقد جاء فيها اتفاق بأن الكتاب صاحب الفكرة في وضعه هو الخليل بن أحمد الفراهيدي ثم أمّته من بعده تلامذته بعد هلاكه فقد جاء في كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي لأبي السعود «ومهما يكن من شيء فإن الذي لا نشك فيه أن الخليل بدأ في الكتاب ويكفيه أن يكون صاحب الفكرة الأولى وفي تأليفه أن لم يكن قد ألفه بنفسه ولا يضير الخليل أن يكون قد أمّته تلامذته من بعده. ولدينا الكتاب لسيبويه بعد وفاة الخليل وليس هناك من شك في المجهود الأكبر للخليل، وهو أول كتاب في اللغة وسمى «كتاب العين» ابتداءً حرف العين⁽²⁰⁾ .

وقد جاء في دائرة المعارف للبستاني أن «أكثر العلماء يقولون أن كتاب العين ليس من تصنيفه- أي الخليل وإنما كان قد شرع فيه وتوفي فأكمّله تلامذته فما جاء عملهم مناسباً لما وضعه الخليل في أول الكتاب محذوفاً ما وضعه وعملوا غيره فلهذا وقع خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله⁽²¹⁾ .

أما الدكتور مهدي المخزومي في كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه فيقول: «بقيت مسألة أخرى في كتاب العين لا بد لنا من التعرض لها وهي نسبة الكتاب فقد شك كثير من الباحثين في نسبة الكتاب إلى الخليل فقال بعضهم أنه من عمل الليث بن مظفر بن نصر بن سيار الخراساني، وروى عن ابن المعتز أنه قال كان الخليل منقطعاً إلى الليث فلما صنفه وقع عنده موقعاً عظيماً فاحتمل على حفظه وحفظ من النصف ثم اتفق أنه احترق ولم يكن عنده نسخة أخرى والخليل قد مات فأملّى النصف من حفظه وجمع علماء عصره فتكلموا على نطه كما جاء في معجم الأدباء⁽²²⁾ .

نظام الخليل في كتاب العين :

يقوم نظام الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أتبعه في تأليف كتاب العين على ما يأتي⁽²³⁾ :

1- ترتيب الحروف لقد دفعه جو الأصوات والإلغاء والذي كان يعيشه في قراءة القرآن وفي تفعيلات العروض وفي ألحان الموسيقى وإيقاعاتها إلى أن يبتكر نظامه الصوتي وحيث أن الألفاظ اللغوية أصوات تصدر ما بين الحنجرة إلى الشفتين، والذي يفرقها بعضها عن البعض الآخر اختلاف مواضع مخارجها، ثم رتب الحروف تبعاً لهذه المخارج ابتداءً بالأبعد في الحلق وانتهى بما يخرج من الشفتين، وقد هداه التفكير إلى الترتيب الصوتي التالي يذكر الدكتور حسين نصار «فاستقام له الترتيب التالي: ع ح هـ خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط ت د، ظ ذ ث، و ل ن، ف ب م، و ي أء» هذا النظام جعله الخليل أساساً في ترتيب كتاب العين، فبدأ كتابه الجيد بحرف العين، ثم كتاب الحاء إلى آخر الترتيب وسمي المعجم الذي ألفه بكتاب العين لاستهلاله به في الابتداء «على عادة العرب في كثير من أسمائهم كما يتضح جلياً في كثير من أسماء سور القرآن»

2- ترتيب الأبنية: أن الكلمات العربية محصورة بين الثنائي والخماسي ولا شيء غير ذلك في قلة أو زيادة: فليراع الخليل في كل كتاب من المعجم هذه الأبنية لكي يسهل عليه الحصر. فجعلها أساس تقسيم الكتب إلى أبواب.

3- ترتيب التقاليب: تتبع الخليل دوران كل حرف من نظامه في كل بناء من أبنية الكلمات العربية. فوجد الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، أما الكلمة الخماسية فأنها تتصرف على مائة وعشرين وجهاً. أكثرها مهملاً وأقلها مستعمل.

الخليل والمعجمات الأجنبية:⁽²⁴⁾

هدف الخليل وخطته في تأليف كتاب العين كانت جديدة وهي من ابتكاره وتتساقط جميع الآراء التي قيلت فيما يخالف هذا الرأي. فالخليل بن أحمد توفي في أول عهد الترجمة قبل عام 175 هـ بينما ولد حنين بن اسحاق بعد عام 194 هـ فتسقط حجة من يقول أن الخليل عرف عنه اليونانية.

أما من يقول أن بعض مناطق الشرق الأدنى عرفت المعاجم. فتقول أنها معاجم خاصة وليست عامة بينما معجم الخليل شامل عام، ثم أن الأبنية التي فيه هي ما تمتاز بها اللغات السامية عن الآراء- كذلك أن الخليل وصل إلى نظام المخارج يفضل ترتيب القرآن الكريم وقد عاش جو القراءات والأنغام والإيقاع الموسيقيين، كما أن فكرة الترتيب ليست غريبة عن الذاهب العربي أو دخيلة عليه فقد عاناها حينما لجأ في تحقيق جمع القرآن وتنظيمه إلى أمرين هما الترتيب الزمني والترتيب الكمي. فأغلب السور المدنية في مفتتح المصحف، والسور الملكية في ختامه، ولما لم يكونا- الترتيب الزمني والترتيب الكمي صالحين في حصر أبنية اللغة العربية، اعمل الخليل ذهنه وابتكر ترتيب التقريب فهو الأيسر في استيعابها.

الأصول التي بنيت عليها مقدمة كتاب العين:-⁽²⁵⁾

تلاحظ أصول أربعة بنيت عليها مقدمة كتاب العين.

1- كلام العرب مبني على أربعة أصناف الثنائي، والثلاثي، والرباعي، والخماسي. بالثنائي في الحروف والأدوات ولا يكون في الأسماء أو الأفعال.

2- نقد الخليل الصيغ الرباعية والخماسية وبين الأصيل والدخيل في اللغة، وأقام نقده من الناحية الصوتية، فالمتناسق عنده عربي صحيح، والناشز مولد دخيل، والأبنية الرباعية والخماسية لا تعرى عن واحد أو أكثر من حروف الذلاقة والتي هي (ر، ل، ن، ف، ب، م) فإن وردت كلمة رباعية أو خماسية معرأة من حروف الذلاقة فأعلم أنها محدثة وليست من كلام العرب، وحرفان القاف والعين لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه.

3- مخارج الحروف وترتيبها كما وردت في مقدمة كتاب العين تأخذ الصورة التالية ع ح ه خ غ. ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، وأ ي ء- أنها 29 حرفاً. 25 حرفاً أصحاح ولها احياز ومدارج و4 حروف هوائية. يعطي الخليل هذه الحروف مسميات حسب الأحياز والمدارج بالحروف الحلقية هي ع ح ه خ غ، واللوية هي ق ك، والشجرية هي ج ش ض، والأسلية هي ص س ز، و النطعية هي ط د ت واللثوية هي ظ ذ ث، و الذلقية هي د ل ن، والشفوية هي ف ب م، والهوائية هي و أ ي، إن مذهب سيبويه الصوتي يتفق إلى حد كبير مع نظام الخليل الصوتي في تقسيم الحروف. حسب مخارجها.

4- والأصل الأخير الذي أقام عليه الخليل ترتيب كتاب العين هو التقاليد الذي عنه تعرف تقاليد كل بناء، وعددها، وكيفية الوصول إليها، ويصرح الخليل بالأسباب التي دفعته إلى تأليف كتاب العين، وترتيبه بالصورة الحالية.

وصف المعجم:

يتصف معجم الخليل: «كتاب العين» بما يلي⁽²⁶⁾:

1- دقة الخليل ووضوحه في تعريف الألفاظ المتصلة بالنبات والحيوان التي يذكرها في الكتاب.
2- عناية الخليل باللغات التي أشار إليها في أكثر من خمسة وثلاثين موضعاً سمي ثلاثاً منها، عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وقطعة طي، وأورد بعض اللغات التي نسبها إلى اللغات المعروفة، دون تسمية معينة، مثل لغات وهذيل، و تميم والخفاجيين من بني عقيل، واليمن وأورد أشياء من لغة المعاصرين له في إقليمه العراق، حيث كان الخليل متسامحاً متحرراً من القواعد المتزمتة. في المنهج؛ يتصف منهج الخليل بظاهرة:⁽²⁷⁾

1- تنظيم طريقة ذكر الأفعال والصفات، وهذا التنظيم من ثوابته فهو يذكر الفعل ويعقبه بمصدره، ويلتزم الترتيب فيه حيث يقدم الماضي ثم المضارع ثم المصدر أو المصادر.
2- إيراد الصفات بعد إيراد الأفعال والمصادر في كثير من الأحيان ولا يتبرم من كثرتها بل يوردها جميعاً، وينبه من وقت لآخر إلى المذكر والمؤنث والمفرد والجمع منها، فيقول « الرقيق الأحق. يقال رجل أرقع مرقعان، وامرأة رقعاء ومرقعانة»

3- تنكب الخليل القياس في مواضيع اللغة، وأحسن استعماله، وأعتمد على أساس من الاشتقاق، قال «امرأة عاقر. وقد عقرت تعقر، وعقرت تعقر أحسن لأن ذلك شيء ينزل بها وليس من فعلها بنفسها.

شواهد كتاب العين: (28)

يستشهد الخليل في كتاب العين بالشعر، والحديث، والأمثال، والقرآن الكريم والشعر يعتبر من أقوى استشهاده، ويعتمد عليه كثيراً، ويكثر من إيراد، يأتي بالبيتين أو الثلاثة ليستشهد بها على أمر واحد، وطريقته في الاستشهاد ليست منسقة، فهو يأتي بالكلمة أولاً ثم يعقبها بشاهدها، أو يأتي بالشاهد في وسط شروحه للكلمة، وطريقة تناوله الشاهد ليس على نظام واحد. فقد يورده دون تعرض له، أو يسير إلى شرح كلمات فيه، أو يشرحه كاملاً، وشعراء الطبقة الأولى والثانية يعتمدهم مطلقاً ويعتمد الفرزدق، والكميت، والطرماح من شعراء الطبقة الثالثة، أما طبقة المولدين فلا يستشهد إلا بحفص الأموي، وبشار بن برد.

مأخذ كتاب العين: (29)

لا يخلو كتاب العين من نقص، كما هو شأن الأمور المبتكرة، فهو أول معجم في اللغة العربية، يضاف إلى ذلك أن الخليل لم يتمه، وإما أنه أحد تلاميذه بعد وفاته، وما يؤخذ عليه:

1. التصحيف فقد اتهم بالتصحيف بفعل التحامل.
2. الانفراد بكثير من الألفاظ، ويرد بأن اللفظ المنفرد الذي يذكره أهل الضبط والإتقان حكمه القبول.
3. اختلاف نسخة واضطراب رواياته. وما وقع فيها من الحكايات عن المتأخرين والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين ويرد على هذا أنه من زيادات الناس، ولا يعيب الخليل ولا كتابه الأصلي.

الضجة حول كتاب العين (30)

لقد أثار كتاب العين ضجة عظيمة، فقد تشعبت الآراء فيه بين المدح والذم، وافترت بين تصديق نسبته إلى الخليل من عدمها، ولقد ذهبوا فيه إلى فرق ثلاث.

- 1- المؤيدون وقد تألفت قديماً من «المبرد، ابن درستويه، الزجاجي، ابن دريد، ابن فارس، ابن عبد البر، ابن جبير، ابن الأنباري، ابن خلدون، وحديثاً تألفت من «جرجي زيدان، محمد بن شنب، محمد صديق حسن خان.
- أما الكتب المنصفة المدافعة عن كتاب العين فتتمثل في كتاب التوسط لابن دريد، وكتاب الرد على المفضل في نقضه على الخليل لإبراهيم بن محمد بن نفطويه، وكتاب الرد على المفضل في الرد على الخليل لعبدالله بن جعفر بن درستويه. ورسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين للزبيدي. ومختصراً كتاب العين لعلي بن القاسم السنحاني والآخر للزبيدي، وكتاب الزبيدي أشهرهما حين ذكر في مقدمته أن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله أمره بجمع وتأليفه، وقد اتبع فيه أموراً ثلاثة هي التنظيم، والتصحيح، والاختصار، وقد سار على ترتيب الخليل وارتضى تقسيمه المعجم إلى كتب بحسب الحروف، فيقول أمره أمير المؤمنين «بأن تؤخذ عيونه، ويلخص لفظه، ويحذف حشوه وتسقط فضول الكلام المتكررة فيه، لتقرب بذلك فائدته، ويسهل حفظه».
- 2- المنكرون وقد تألفوا من «النضر بن شميل، ومؤرخ السدوسي، نصر بن علي الجهضمي، وأبو

الحسن الأخفش، وأبي حاتم السجستاني، وابن جني، والقالي، والأزهري. إن جميع حجج المنكرين من أقوالهم، فالنضر يقول، أقمت بالبادية أربعين سنة « وإقامته فيها لا تمنع أن يؤلف الخليل كتابه، والأزهري يقول جمع اللغويون على أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، أما حملته اذن كان لها غرض خاص ترمى إلى تقرير عدم أهمية المعاجم التي سبقت معجمه يبرزه في صورة الكتاب الذي ليس له قرين، والأزهري عندما أراد في المقدمة أن يذكر منهجه ويوضح ترتيبه ويبين لنا كيفية تنظيم المفردات لجأ إلى مقدمة كتاب العين ينقل منها بالحرف الواحد الشيء الكثير. ويعزى إلى أبي علي القالي بأنه لم يعترف بكتاب العين بناء على أنه ليس للكتاب إسناد. ولكن الذي يبدو غريباً في أن القالي نفسه أقتبس منه كثيراً في كتاب البارع تحت عبارة: وقال الخليل: ومن ناحية أخرى فإن عدم معرفة أبي حاتم بانتشار الكتاب في عهده لا يدل على عدم نسبته إلى الخليل، وأما عدم بسلسلة رواية العين لا تنفي نسبة الكتاب إلى الخليل وكتب النقد هي، كتاب الرد على الخليل وإصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال للمفضل بن سلمة الكوفي. وكتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين لأبي بكر الزبيدي. وكتاب الرد على الليث الأزهري، وكتاب غلط العين للخطيب الإسكافي.

3- أصحاب الموقف الوسط: (31).

تألفت قديماً من ثعلب وإسحاق بن راهويه، والسيرافي، وابن المعتز وأبي الطيب اللغوي، وأبي بكر الزبيدي وغيرهم، وأخيراً السيوطي والأب انستاس ماري الكرمل، وجميع هؤلاء تتراوح آراؤهم فيما بين: الخليل وضع كتاب العين والليث أكمله كما يقول أبو الطيب اللغوي، والآخر: الفكرة للخليل والليث قد وضع الكتاب هما يتفق وهذه الفكرة، والرأي الأخير: الليث أعاد وضع الكتاب بعد أن أحترق، وينسب هذا الرأي إلى ابن المعتز الخليفة الشاعر، أو ما في المقدمة منسوب للخليل، أو عمل الخليل أول كتاب العين، أو عمل الخليل في كتاب العين قطعة من أوله إلى حرف العين.

رأي الدكتور حسين نصار: (32)

أثبت ما يقوله الدكتور حسين نصار «بأن الخليل وضحت لديه فكرة المعجم، ووضع المنهج الذي يحققها وأخذ في تنفيذه. ولكن القدر لم يمهله حتى يتمه، فعهد به إلى تلميذه الليث ونصحه بسؤال العلماء فبذل هذا جهده في السير على خطة أستاذه، والإفادة مما كتبه من مادة أو مما يلقيه من العلماء. ثم صار الكتاب إلى خزانة آل طاهر بخراسان، فاطلع عليه القراء، وقيدوا على هوامشه، وربما في متنه أيضاً تعليقاتهم المكملة أو الموضحة أو المعارضة - فدخل في الكتاب- في أثناء ذلك كله - مواد غريبة وتصحيقات وأخطاء وزيادات من غير صاحبه الأول والثاني وقد سبق أن رأينا الأمر نفسه يحدث لنوادير الأصمعي في خزانة آل طاهر أنفسهم واختلفت نسخ العين في التنبيه إلى هذه الإضافات إذ نقلها وراقون لا عالمون محققون، فمنها ما نبه على صاحبه، ومنها ما أهمل ذلك فيه إهمالاً تاماً أو جزئياً، ومنها ما عزل في الهامش، ومنها ما أقحم كله

أو جزء منه في المتن، أو منها ما ألحق في ختام المواد. ووقعت هذه النسخ المختلفة إلى اللغويين فطنوا إلى بعض هذه الإضافات وأبهم عليهم بعضها الآخر، فاختلف، موقفهم منها، فأحدهم حذفها لأنه تنبه إلى إقحامها، وآخر أخذها ونسبها إلى صاحبها أو إلى «قوم» وثالث اقتبسها ظاناً أنها من العين نفسه، ونسبه إلى مؤلفه»
الخاتمة

: لقد ترك كتاب العين أثراً في المعاجم ما بعده⁽³³⁾
وإن اختلف كل منها عن الآخر، فقد تأثرت هذه المعاجم بخطة كتاب العين ونظامه . عليه ، فقد توصل الباحث في هذا إلى عديد النتائج منها :

- اعتبار الحروف هي الأصول وحدها في ترتيب الكلمات، ولم يجد واحد منها عن ذلك أبداً -
تعالج أموراً مختلفة تتصل بالحيوان والنبات والأعلام وغيرها إلى جانب موضوعات اللغة التي تشمل التفسير، لغات قبلية معرب ومولد - تهدف جميعاً إلى الغرض الذي أراده الخليل من كتاب العين وهو جمع اللغة كلها واضحها وغريبها، وشذ عن ذلك الجمهرة، وربما الصحاح والأساس -
تمسكت هذه المعاجم جميعاً بنظام الأبنية الذي سار عليه الخليل كالبارع للقيالي، والتهذيب للأزهري، والمحيط للصاحب بن عباد والمحكم لابن سيده.

وبعد هذا كله أميل إلى الرأي الذي يقول بأن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو الذي ألف كتاب العين من أوله إلى آخره، وإن تلميذه الليث كان راويته في ذلك⁽³⁴⁾.

هذا ويوصي الباحث بعدد من الوصايا التي من شأنها أن تسهم في هذا المجال ، منها :

- توسيع دائرة البحث في جهود علماء البصرة ، بصورة أعمق ، وتبين مواطن الاتفاق والاختلاف فيما بينهم ، درس آثار علماء النحو ، والصرف ، من خلال قاعات الدراسة داخل الجامعات ، صورة موحدة ؛ حتى نرتقي بمستوى التحرير والتخاطب عند الطلاب .

المصادر والمراجع:

- (1) الفهرس لأبن النديم ص6، وطبقات النحويين واللغويين ص47- ومكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي د. جعفر عاينة ص23 ونزهة الألباء ص45 وفيات الأعيان ج2 ص15 ومعجم الأدباء ص11-72
- (2) الخليل بن أحمد الفراهيدي، د. مهدي المخزومي ص42- ط1 بيروت.
- (3) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص29.
- (4) شرح مقامات الحريري، ج4، ص383
- (5) المرجع السابق، ص116
- (6) طبقات النحويين واللغويين الزبيدي ص47، ط بيروت
- (7) الدندر أصول الشجر، وفي رواية الدندن: ما أسود من النبات والشجر (القاموس المحيط)
- (8) المصدر السابق ص48
- (9) البداية والنهاية بن كثير ج10 ص161
- (10) موضع بالبصرة
- (11) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص56
- (12) فهرست ابن النديم: 64، 65.
- (13) كتاب العين والخليل بن أحمد- أبوالسعود ص446.
- (14) مقدمة ابن خلدون ص1059 وكذلك الخليل بن أحمد- عبد الحفيظ أبوالسعود ص131، 132
- (15) الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه- مهدي المخزومي ص99، ومختصر كتاب العين ص11 وكتاب العين- الأب انستاس الكرمل ص1.
- (16) مختصر كتاب العين ص1، 2 وكتاب العين ص52، وكتاب ضحى الإسلام ص266
- (17) وفيات الأعيان لابن خلكان ص17 ج2، المعجم العربي ص264
- (18) الفهرست لابن النديم ص125
- (19) المزهر في علوم اللغة- السيوطي ص84 ج1
- (20) الخليل بن أحمد الفراهيدي- عبد الحفيظ أبوالسعود ص41
- (21) دائرة المعارف للبستاني مجلد7 ص160
- (22) الخليل بن أحمد الفراهيدي، مهدي المخزومي ص162
- (23) اعتمدت في هذا على الكتاب «المعجم العربي» للدكتور حسين نصار بتصرف ص195-197
- (24) المعجم العربي- حسين نصار ص199-202.
- (25) المعجم العربي- حسين نصار ص203-222

- (26) المصدر السابق ص 231.
- (27) المصدر السابق ص 232-234
- (28) المصدر السابق ص 235
- (29) المصدر السابق، ص 234.
- (30) المصدر السابق، ص 235.
- (31) المصدر الصادق، ص 262-265
- (32) المعجم العربي ص 270
- (33) المصدر السابق ص 271
- (34) كتاب العين- لعبد الله درويش ص 27